الباب الثامن والعشرون

محاكم التفتيش فى بداية عهدها

١٠٠٠ — ١٣٠٠

الفصل الأول

الإلحاد الألبجنسى

وصارت الحملة على رجال الدين سيلاً جارفاً فى آخر القرن الثانى عشر. فقد كان فى عصر الإيمان مخافئ منعزلة من التصوف الدينى والعاطفة الدينية ، بمنجاة من المسيحية الكهنوتية المنظمة ، غير راضية عن أعمالها . وأقبلت على بلاد الغرب موجات جديدة من التصوف الشرقى لعلها سارت فى ركاب الصليبيين العائدين إلى بلادهم . وجاءت من بلاد فارس عن طريق آسية الصغرى وبلاد البلقان أصداء الاثنينية المانوية(*) والشيوعية المزدكية . وجاءت من بلاد الإسلام كراهية الصور والاشمئزاز من القساوسة ؛ وأعقب الحروب الصليبية وإخفاقها شك خفى فيما يعزى إلى الكنيسة المسيحية من أصل قدسى ومعونة إلهية . وجاء البوليسيون Paulicians إلى إيطاليا وبروڤانس عن طريق بلاد البلقان فارّين نحو الغرب من وجه الاضطهاد البيزنطى ، يحملون معهم سخريتهم من الصور المقدسة والعشاء الربانى ، ورجال الدين ، وقسموا الكون إلى عالم روحى

(*) المانوية أتباع مانى ، وهو رجل من أهل همذان عاش بين عامى ٢١٥ و ٢٧٦ وقال إن كل شىء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلام أو الخير والشر . (المترجم)

من خلق الله وعالم مادى من خلق الشيطان ، وقالوا إن الشيطان هو يهوة الوارد ذكره فى العهد القديم . وتكونت طائفة البجوميل Bogomiles (أى أصدقاء الله) فى بلغاريا ، وتسمّوا فيها بهذا الاسم ، وانتشروا فى البوسنة بنوع خاص ؛ وهوجموا بالسيف والنار فى أوقات مختلفة فى القرن الثالث عشر ، واستماتوا فى الدفاع عن أنفسهم ، ثم استسلموا آخر الأمر (١٤٦٣) للإسلام لا للمسيحية .

وظهرت فى عام ١٠٠٠ شيعة فى طولوز (طلوشة) وأورليان ، تنكر المعجزات وقدرة التعميد على غسل الذنوب ووجود المسيح فى القربان المقدس ، وتأثير الصلوات للقديسين . وأغفل أمرهم إلى حين ، ثم حوربوا ، وأحرق ثلاثة عشر منهم أحياء فى عام ١٠٢٣ . ونشأت شيع ملحدة أخرى شبيهة بهم ، وأعقبت نشأتهم اضطرابات فى كمبريه ، وليبج (١٠٢٥) ، وجسلار Goslar (١٠٥٢) ، وسواسون Soissons (١١١٤) ، وكولونى (١١٤٦) ، وغيرها من المدن ، أحصى منها برثلد الرجنزبرجى Berthold of Regensburg مائة وخمسين شيعة فى القرن الثالث عشر[1] ؛ منها جماعات عديمة الضرر تلتقى ليقرأ بعضها إلى بعض الكتاب المقدس بلغتها القومية دون الاستعانة بقسيس ، وليفسروا بأنفسهم ما فيه من عبارات اختلف الناس فى تفسيرها ؛ ومنها جماعات عدة كالهيومليانى Humiliati فى إيطاليا ، والبجوين Béguines والبغارد Beghards فى البلاد الوطيئة ، تتمسك بالدين فى كل شىء إلا فى إصرارها المحير على أن يعيش القساوسة فقراء . وكان الفرنسيسكان شيعة من هذا الصنف ، وكانت تعَدُّ من الشيع الملحدة ولم تنج من هـذا إلا بشق الأنفس .

لكن الولد نزين Waldenses لم ينجوا من هذا المصير ، فقد استأجر تاجر ثرى يدعى بطرس ولدو Pater Waldo فى عام ١١٧٠ جماعة من العلماء ليترجموا الكتاب المقدس إلى اللانج دك langue d'oc لغة جنوبى فرنسا . وأقبل على درس الترجمة بشغف ، وخرج من هذا الدرس معتقداً أن من واجب المسيحيين

أن يعيشوا كما كان يعيش الرسل — ليس للواحد منهم ملك خاص . ثم نزل عن جزء من ثروته لزوجته ، ووزع الباقى منها على الفقراء ، وقام يدعو الناس إلى أن يعيشوا فقراء . وجمع حوله طائفة قليلة العدد هى « رجال ليون الفقراء » لبسوا مسوح الرهبان ، وعاشوا عيشة العفة والطهارة ، ومشوا حفاة أو منتعلين الصنادل ، وكانوا ينفقون من مكاسبهم مشاعة[٢] . وصبر عليهم رجال الدين بعض الوقت فلم يعارضوهم فى شىء ، وسمحوا لهم بأن يقرأوا أو ينشدوا فى الكنائس[٣] . ولكن بطرس ضرب بمنجله محصول رجل غيره ، منفذاً بذلك أوامر الإنجيل بحرفيتها ، فأذكره رئيس أساقفة ليون بعبارة قوية أن الأساقفة وحدهم هم الذين يجوز لهم أن يعظوا الناس . وسافر بطرس إلى رومة (١١٨٩) ، وطلب إلى الإسكندر الثالث أن يمنحه إذناً بالوعظ ، فأجابه البابا إلى طلبه على شريطة أن يوافق على ذلك رجال الدين المحليون ، وأن يكون خاضعاً لإشرافهم . وواصل بطرس عظاته ، دون أن يحصل على موافقة رجال الدين المحليين ؛ وأصبح أتباعه من أشهر رجال الدين تمسكا بالكتاب المقدس ، وحفظوا فقرات طويلة منه عن ظهر قلب . واصطبغت هذه الحركة تدريجاً صبغة معادية لرجال الدين ، ونبذتهم جميعاً ، وأنكرت صحة العشاء الربانى الذى يقدمه قس آثم ، وعزت إلى كل مؤمن طاهر القدرة على العفو عن الذنوب . وعارض بعض الأعضاء صكوك الغفران ، وعقيدة المطهر ، وتحول القربان المقدس إلى جسم المسيح ودمه ، والصلاة للقديسين . وقامت طائفة منهم تنادى بأن « الأشياء جميعها يجب أن تكون ملكا مشاعاً »[٤] . ونادت طائفة أخرى بأن الكنيسة هى المرأة الحمراء المذكورة فى سفر الرؤيا[٥] . وصدر فى عام ١١٤٨ قرار بحل هذه الجماعة ، وقبل إنوسنت الثالث فى الكنيسة عام ١٢٠٦ فئة منها هى فئة « الكاثوليك الفقراء » ، أما كثرتها الغالبة فقد أصرت على آرائها الخارجة على الدين ، وانتشرت من فرنسا إلى أسبانيا وألمانيا . وأصدر مجلس عقد فى طولوز عام ١٢٢٩ ، ليقاوم أغلب

الظن انتشار هذه الشيعة ، قراراً يقضى بألا يمتلك شخص من غير رجال الدين كتباً مقدسة عدا كتب الترتيل والأدعية (ومعظمها مزامير) ؛ وجرم عليهم أن يقرأوا هذه الكتب بغير اللغة اللاتينية ، لأن الكنيسة لم تكن حتى ذلك الوقت قد بحثت أية ترجمة إلى اللغات القومية وأيدت صحتها[٦] . ولما قاومت حركة القضاء على الألبجنسيين حُرق آلاف من أتباع ولدو ، ومات بطرس نفسه فى بوهيميا فى عام ١٢١٧ ، ويبدو أنه مات ميتة طبيعية .

وقبل أن ينتصف القرن الثانى عشر كانت بلدان أوربا الغربية معششاً للشيع الملحدة ، حتى قال أحد الأساقفة فى عام ١١٩٠ إن « المدن ملأى بأولئك الأنبياء الكاذبين »[٧] ، وكان فى ميلان وحدها سبعة عشر ديناً جديداً ، وكان أهم الشيع الملحدة فيها شيعة البتريائيين Patarines — ويبدو أن اسمهم مشتق من پتاريا Pataria أحد الأحياء الفقيرة فى البلدة . ويلوح أن هذه الحركة بدأت احتجاجاً على الأغنياء ، ثم استحالت حركة ضد رجال الدين ، وأخذت تندد بالرشا وبيع المناصب الكهنوتية ، وثراء رجال الدين وزواجهم ، وانتشار التسرى بينهم ، واقترحت كما قال أحد زعمائها « أن تصادر أموال رجال الدين ، وأن تباع أملاكهم بالمزاد ؛ فإذا قاوموا فلتبح بيوتهم للنهب ، « وليطردوا هم وأبناؤهم غير الشرعيين من المدينة »[٨] . ونشأت شيع مثلها ضد رجال الدين فى ڤيتربو Viterbo ، وأرڤيتو Orvieto وڤيرونا Verona ، وفرارا Ferrara وپارما Parma وپياسنزا Piacenza ، وريمينى Rimini . . .[٩] ، وكانت هذه الشيع فى بعض الأوقات هى المسيطرة على الجمعيات الشعبية ، والمستولية على زمام الحكم ، وبلغ من سلطانها أن فرضت الضرائب على رجال الدين لتمويل المشروعات المدنية[١٠] . وأمر إنوسنت الثالث مندوبه فى لمبارديا أن يستقسم جميع موظفى البلديات ألا يعينوا أحداً من الملاحدة فى أية وظيفة أو أن يوافقوا على أى تعيين من هذا القبيل . وثار الغوغاء فى مدينة ميلان عام ١٢٧٣ وأخذوا « يجهرون

بأقوال التجديف والسباب » ، ودنسوا عدة كنائس « بالأقذار التى نستنكف عن ذكرها »[١١] .

وكانت أسماء مختلفة تطلق على أقوى الشيع الملحدة كلها ، فكانت تسمى شيعة الكاثارى ، وهذا اللفظ مشتق من كلمة يونانية معناها « الطاهر » . أو البلغارى نسبة إلى أصلهم (ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة « بجر Bugger » للسباب) ؛ والألبيجنسيين نسبة إلى بلدة ألبى Albi التى كانوا يكثرون فيها بنوع خاص . وكانت مدائن منپليه ، ونربونه ومرسيليا المراكز الفرنسية للشيع الملحدة ، ولعل منشأ هذا هو اتصالها بالمسلمين واليهود ، وتردد التجار من مراكز الإلحاد فى البوسنة ، وبلغاريا ، وإيطاليا . ونشر التجار حركة الإلحاد فى طولوز ، وأورليان ، وسواسون ، وأراس ، وريمس ؛ ولكن لانجويدك Languedoc وپروڤانس بقيتا حصنها الحصين . وكانت حضارة العصور الوسطى الفرنسية قد بلغت ذروتها فى هاتين المقاطعتين ؛ فكان أتباع الأديان الكبرى يختلطون فيهما متحابين كما يتحاب أهل الحضر المهذبون .

وكانت النساء حسانا مزهوات ، والأخلاق طليقة من القيود ؛ وكان الشعراء الغزلون ينشرون الأفكار المرحة ، وكان عصر النهضة وشيك البدء فيهما كما كان وشيك البدء فى إيطاليا أيام فردريك . وكانت فرنسا الجنوبية تتألف وقتئذ (١٢٠٠) من إمارات تكاد تستقل كل منها بشئونها لا يربطها بالولاء إلى ملك فرنسا إلا ارتباط واه . وكان نبلاء طولوز هم أعظم السادة فى ذلك الإقليم ، فقد كانوا يملكون من الأراضى أكثر من أملاك الملك الخاصة . وكانت عقائد الكاثارى وشعائرهم من ناحية عودة إلى العقائد والأساليب المسيحية الأولى ، وكانت من ناحية أخرى ذكرى غامضة للإلحاد الأريوسى الذى انتشر فى فرنسا الجنوبية فى عهد القوط الغربيين ، ومن ناحية ثالثة نتيجة للآراء المانوية وغيرها من الآراء الشرقية . وكان من بينهم رجال دين يرتدون ثياباً سوداء ، ومطارنة يسمون

الكمل Perfecti ، يقسمون وقت ترقيتهم لهذه المناصب أن يتخلوا عن آبائهم وأزواجهم ، وأبنائهم ، وأن يهبوا أنفسهم « لله والإنجيل . . . وألا يقربوا امرأة قط ، ولا يقتلوا حيوانا ، ولا يأكلوا اللحم أو البيض أو منتجات الألبان ، وألا يطعموا إلا السمك والخضر(*) » . وكان أتباعهم « المؤمنون (Credentes) » يتعهدون بأن يقسموا فيما بعد الأيمان على هذا ، وكان يسمح لهم قبل أن يقسموها أن يأكلوا اللحم ، ويتزوجوا ولكنهم كان يطلب إليهم أن يخرجوا من الكنيسة الكاثوليكية ، وأن يسيروا نحو الحياة « الكاملة » ، وأن يُحيُّوا كل واحد من الكمل بثلاث ركعات علامة على التعظيم.

وتقسم فلسفة الكاثارى الدينية الكون كما يقسمه المانوية إلى الخير : الله والروح ، والسماء ؛ والشر : الشيطان ، والمادة ، والعالم المادى. وتقول إن الشيطان لا الله هو الذى خلق العالم المرئى. وهى تعد المادة كلها شرا بما فيها الصليب الذى مات عليه المسيح والقربان المقدس ، وتقول إن المسيح لم يكن يتحدث إلا مجازاً حين قال عن الخبز : « هذا جسمى »(١٣) . وإذا كانت الأجسام كلها من المادة فإن كل اتصال بها يدنس المتصل ، وكل الاتصال الجنسى إثم ، وكان الجماع هو خطيئة آدم وحواء(١٤) . ويصف أعداء الألبجنسيين أولئك القوم بأنهم يرفضون العشاء الربانى ، والقداس ، وتعظيم الصور المقدسة ، والتثليث ، ولا يؤمنون بأن المسيح ولد من عذراء ؛ وعندهم أن المسيح من الملائكة ، ولكنه ليس هو الله . ويقال عنهم إنهم ينكرون الملكية الخاصة ، ويأملون أن تقسم الطيبات بين الناس بالتساوى(١٥) . وقد اتخذوا « عظة الجبل » أساساً لمبادئهم الأخلاقية ؛ وكانوا يعلِّمون أن يحبوا أعداءهم ، وأن يعنوا

(*) من تقرير كتبه سكونى Sacchoni أحد قضاة محكمة التفتيش(١٢) . ولسنا نعرف شيئاً من عقائد الكاثارى وشعائرهم إلا منقولا عن أعدائهم . أما ما كتبوه هم فقد ضاع أو تلف .

بالمرضى والفقراء ، وألا يقسموا قط ، وأن يستمسكوا على الدوام بالسلم ؛ وكان يقال لهم إن العنف يتنافى مع الخلق الكريم ، ولو كان موجهاً للكفار ، وإن عقوبة الإعدام من أكبر الجرائم ، وإن على الإنسان أن يوقن وهو مطمئن أن الله سينتصر آخر الأمر على الشر من غير أن يستخدم وسائل شريرة(١٦) . ولم يكن فى هذه الفلسفة الدينية نار ولا مطهر ؛ بل إن كل نفس ستنجو بعد أن تتقلب فى عدة أدوار من التناسخ تطهرها من آثامها ؛ ولا بد للإنسان أن يموت وهو طاهر لكى يصل إلى السماء ؛ ولهذا كان عليه أن يتلقى من قس مسيحى القداس الأخير الذى يتم به تطهير الروح من آثامها . وكان الكثاريون المؤمنون يؤجلون هذا القداس (كما كان بعض المسيحيين الأولين يؤجلون التعميد) إلى مرضهم الأخير فى ظنهم ، وكان الذين يشفون من هذا المرض يتعرضون لخطر الدنس من جديد ، وللموت دون أن يقوموا بمراسيم القداس الأخير ؛ ولهذا كان من أكبر البلايا أن يشفى الشخص من مرضه بعد أن يقوم بمراسمه . وكان القساوسة الألبيجنسيون يتهمون بأنهم يعملون لمنع هذه الكارثة بإقناع الكثيرين من المرضى الذين يشفون بأن يميتوا أنفسهم جوعاً ليرقوا إلى السماء . ويؤكد لنا أعداؤهم أنهم كانوا فى بعض الأحيان يميتون المريض خنقاً برضاه حتى لا يكون ثمت مجال لاحتمال شفائه من مرضه الأخير(١٧) .

ولقد كان يسع الكنيسة أن تترك شيعة الكاثارى تقضى بنفسها على نفسها ، لولا أن هذه الطائفة أخذت توجه سهام النقد إلى الكنيسة . فقد أنكرت أن الكنيسة كنيسة المسيح ؛ وقالت إن القديس بطرس لم يأت قط إلى رومة ، ولم يؤسس البابوية ، وإن البابوات خلفاء الأباطرة لا خلفاء الرسل ؛ وإن المسيح لم يجد له مكاناً يضع فيه رأسه ، أما البابا فيسكن قصراً منيفاً ، وإن المسيح لم يكن له ميلك ولا مال ولكن كبار رجال الدين المسيحيين من ذوى الثراء

العريض ؛ وما من شك — كما يقول الكاثارى — فى أن رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، ذوى الأملاك الواسعة ، والقساوسة الدنيويين ، والرهبان السمان ، هم الفريسيون Pharisees (الزنادقة) الأقدمون عادوا إلى الحياة من جديد ! ولم يكونوا يشكّون فى أن الكنيسة الرومانية هى « زانية بابل » ، وأن رجال الدين هم زمرة الشيطان ، وأن البابا هو المسيح الدجال[١٨] . وكانوا ينددون بالداعين إلى الحروب الصليبية ويصفونهم بأنهم قتلة[١٩] ، وكان الكثيرون منهم يستهزئون بصكوك الغفران والمخلفات المقدسة . ويقال إن جماعة منهم صوروا العذراء فى صورة قبيحة ، عوراء ، مشوهة الجسم ، وادعوا أنهم يفعلون بهذه الصورة المعجزات ، وإن كثيرين من الناس آمنوا بقوة هذه الصورة النزائفة ، ثم كشفوا هم أنفسهم آخر الأمر عن سخريتهم[٢٠] . ونشرت كثير من آراء الكاثارى عن طريق الأغانى التى يذيعها شعراء الفروسية الغزلون ، ولم يكن هؤلاء ممن تعجبهم تعاليم المسيح الأخلاقية وإن لم يعتنقوا آراء الشيعة الجديدة . غير أن جميع زعماء هذه الطائفة من الشعراء كانوا يعدُّون من أنصار الألبجنسيين ؛ فقد كانوا يسخرون من الحج ، والاعتراف ، والماء المقدس ، والصليب ، وكانوا يسمون الكنائس « معششات اللصوص » ، كما كان القساوسة الكاثوليك فى رأيهم « خونة ، كاذبين ، منافقين »[٢١] .

وظل رجال الدين والسلطة الزمنية فى فرنسا الجنوبية حيناً من الدهر يبدون الكثير من التسامح مع طائفة الكاثارى ؛ ويلوح أنهم أجازوا لجمهرة الشعب أن تختار بملء حريتها بين الدينين القديم والجديد[٢٢] . وعقدت مجالس عامة تناقش فيها فقهاء الكاثارى والكاثوليك ، منها واحد عقد فى كاركسون Carcassonne حضره مندوب من قبل البابا وآخر من قبل پدرو الثانى ملك أرغونة (١٢٠٤) . كذلك عقدت عدة فروع مختلفة من الكاثارى مجلساً من رجال دينها فى عام ١١٧٦ ، وحضره ممثلون لهذه الفروع من بلاد مختلفة .

وتباحث المجتمعون فى عقائد هذه الشيعة ، ونظمها ، وشئونها الإدارية ، ووضعت قواعد تسير بمقتضاها ، وانفض المجتمعون دون أن يتعرض لهم أحد(٢٣) . وفوق هذا فإن الأشراف رأوا أن من الخير لهم أن يضعفوا سلطان الكنيسة فى لانجويدك ؛ ذلك أن هذه الكنيسة كانت واسعة الثراء تمتلك الكثير من الأرض ، على حين أن الأشراف كانوا إذا قيسوا إليها فقراء ؛ ولهذا شرعوا ينتزعون بعض أراضيها . وحدث فى عام ١١٧١ أن هاجم فيكونت بيزيير Béziers ديراً من الأديرة ، وزج أسقف ألبي Albi فى السجن ، وعين أحد الخارجين على الدين لحراسته . ولما أن اختار رهبان آليه Allet رئيساً عليهم ممن لا يرضى عنهم الفيكونت أحرق الدير وزج بالرئيس فى السجن . فلما مات هذا السجين نصب الفيكونت المرح جثته فى المنبر ، وأرغم الرهبان على أن يختاروا فى مكانه رئيساً يرتضيه . كذلك طرد ريمند روجر Raymond Roger كونت فوا Foix رئيس دير باميير Pamiers ورهبانه من ديرهم ، وأطعم خيله الشوفان من فوق المذبح ، واستخدم جنودُه أذرع الصلبان التى عليها صورة المسيح مصلوباً وأرجلها مدقات لطحن الحبوب ، واتخذوا صورة المسيح هدفاً للتدريب على الرماية . وهدم ريمند كونت طولوز عدداً من الكنائس ، واضطهد رهبان مواساك Moissac ، وطُرد من حظيرة الدين (١١٩٦) ؛ ولكن الحرمان الدينى كان وقتئذ أمراً لا قيمة له فى نظر الأشراف المقيمين فى فرفسا الجنوبية ؛ واعتنق الكثيرون منهم آراء الكاثارى الإلحادية ، أو بسطوا على معتنقيها حمايتهم(٢٤) .

ولما جلس إنوسنت الثالث على كرسى البابوية فى عام ١١٩٨ رأى فى هذه التطورات خطراً محدقاً بالكنيسة والدولة جميعاً . لقد كان يرى بعض العذر فيما يوجه إلى الكنيسة من نقد ، ولكنه كان يحس بأنه لا يستطيع أن يقف مكتوف اليدين ، يرى هذا الصرح الدينى العظيم الذى وضع له أكبر الخطط ، وعقد عليه أنبل الآمال ، والذى بدا له أقوى عاصم من العنف البشرى ، والفوضى

الاجتماعية ، ومن ظلم الملوك — ، يرى هذا الصرح يهاجم من أساسه ، وتغتصب ممتلكاته ، وتهان كرامته ، ويتعرض لضروب السخرية والتجديف . لقد ارتكبت الدولة هى أيضاً كثيراً من الذنوب ، واحتضنت الفساد والموظفين الفاسدين ، ولكن البلهاء وحدهم هم الذين يرغبون فى القضاء عليها . وهل يستطاع إقامة نظام اجتماعى دائم على المبادئ التى تنهى عن الأبوة ، وتدعو إلى الانتحار ؟ وهل يفلح نظام اقتصادى يمجد الفقر ويخلو من كل ما فى الملكية من حافز إلى السعى والعمل ؟ وهل يستطاع إنقاذ العلاقات الجنسية بين النساء والرجال ، وتنشئة الأطفال ، من الفوضى الوحشية إلا بنظام كنظام الزواج . وقد بدت عقائد الكاثارى لإنوسنت كأنها خليط من السخف ، نفثت فيها سذاجة الجماهير سما زعافاً ؟ وما فائدة حرب صليبية توجه إلى المسلمين فى فلسطين إذا ظل هؤلاء الألبجنسيون يتضاعفون فى قلب العالم المسيحى نفسه ؟

وكتب إنوسنت بعد شهرين من توليته إلى رئيس أساقفة أوتش Auch فى غسقونية يقول :

إن قارب القديس بطرس الصغير تتلقفه العواصف وتتقاذفه أمواج البحر ، ولكن أشد ما يحزننى ويقض مضجعى . . . أن قامت فى هذه الأيام فئة لم نر لها فيما مضى مثيلا فى تحررها من جميع القيود وفى شدة أذاها ، قد ارتكبت أخطاء لا يرتكبها إلا الشياطين ، وأخذت توقع نفوس السذج من الناس فى حبائلها ، وتفسد بخرافاتها وبدعها الكاذبة معانى الكتاب المقدس ، وتحاول أن تهدم وحدة الكنيسة الكاثوليكية . وإذ كان . . . هذا الوباء قد أخذ ينتشر فى غسقونية والأقاليم المجاورة لها ، فإنا ندعوكم أنتم والأساقفة زملاءكم إلى مقاومته بكل ما أوتيتم من قوة . . . وقد أصدرنا إليكم هذا الأمر القوىّ النافذ أن تقضوا على هذه الفئات الملحدة بكل ما تستطيعون من الوسائل ، وأن تخرجوا من

أسقفيتكم كل من أصابهم دنسها . . . وفى وسعكم إذا اضطررتم أن تجعلوا الأمراء والشعب يقضون عليهم بحد السيف[٢٥].

ويبدو أن رئيس أساقفة أوتش — وهو رجل متسامح مع غيره كما هو متسامح مع نفسه — لم يقم بالعمل الذى تدعوه هذه الرسالة إلى القيام به ؛ أما رئيس أساقفة نربونة وأسقف بيزيير فقد قاوما المندوبين اللذين عينهما إنوسنت لينفذا أوامره . وحدث حوالى ذلك الوقت أن اعتنقت ست سيدات تتزعمهن أخت كونت فواه مبادئ الكاثاريين ، وكان ذلك فى احتفال عام شهده كثير من النبلاء ، فما كان من إنوسنت إلا أن استبدل بمندوبيه المحققين مندوبا آخر أشد منهم بطشا وأمضى عزيمة ، وكان هذا المندوب هوارنو Arnuad رئيس الرهبان السسترسيين (١٢٠٤) ومنحه قوات غير عادية تجيز له أن يفحص ويحقق فى جميع أنحاء فرنسا . وأمره أن يعرض على ملك فرنسا وأشرافها عفواً شاملا لكى يساعدوه فى القضاء على شيعة الكاثارى الملحدة ، ثم عرض البابا على فليب أغسطس فضلا عن هذا أن يمنحه نظير هذه المساعة جميع الأراضى التى يمتلكها من يأبون الانضمام إلى حملة صليبية ضد الألبجنسيين[٢٦] . لكن فليب تردد فى قبول هذا العرض لأنه كان قد أتم قبيل ذلك الوقت فتح نورمندية ، وكان فى حاجة إلى متسع من الوقت يهضم فيه هذا الكسب الجديد . ووافق ريمند السادس صاحب طولوز أن يستخدم طريقة الإقناع مع الملحدين ، ولكنه أبى أن يشترك فى حرب تشن عليهم ، فما كان من إنوسنت إلا أن أصدر عليه قرار الحرمان ؛ فلما وعد ريمند بأن يجيب البابا إلى طلبه ، وعفا عنه البابا ، عاد إلى التباطؤ والإهمال ، وقال أحد الفرسان الذين أمرهم مندوب الباب بطرد الكاثارى من أرضه ؛ «كيف نفعـــل هذا وقد نشأنا مع هؤلاء القوم ومنهم بعض أهلينا ، ونراهم يعيشون بيننا معيشة الصالحين ؟»[٢٧] . وأقبل على القوم القديس دمنيك من أسبانيا ؛ وأخذ يخطب داعيا إلى مسالمة الزنادقة ، وعاد

بعضهم إلى الدين القويم متأثرين بتقواه وصلاحه[٢٨] . ولعل المشكلة كانت تحل بهذه الطريقة ، يصاحبها إصلاح شأن رجال الدين لو لم يقتل پيرده كاستلنو Pierre de Castelnau أحد مندوبى البابا بيد فارس بسط عليه ريمند بعدئذ حمايته[٢٩] . وكان إنوسنت قد رأى جهوده التى بذلها نحو عشر سنين طوال ضد هذه الطائفة الملحدة تبوء بالخيبة ، فلجأ إلى أساليب العنف الشديد ، وحرم ريمند ومحرضيه من الكنيسة ، وأصدر قرار التحريم ضد الأراضى الخاضعة لهم ، وعرض هذه الأراضى على كل مسيحى يستطيع القبض عليهم ، ودعا المسيحيين فى جميع أقطار العالم إلى حرب صليبية ضد الألبجنسيين ومن يحمونهم . وأجاز فليب أغسطس لكثيرين من بارونات مملكته أن يتطوعوا فى هذه الحرب ، وجاءت فصائل من ألمانيا وإيطاليا . ووعد جميع من يشتركون فى هذه الحرب بالغفران الشامل الذى وعد به من يحملون الصليب للقتال فى فلسطين . وطلب ريمند المغفرة ، وكفر عن ذنبه علنا (ضرب بالسوط وهو نصف عار فى كنيسة القديس چيل St. Gilles) ونال المغفرة للمرة الثانية واشترك فى الحرب المقدسة (١٢٠٩) .

وقاوم معظم سكان لانجويدك ، خاصتهم وعامتهم على السواء ، أولئك الصليبيين ، لأنهم رأوا فى هجوم أشراف الشمال وجنوده المغامرين محاولة تبغى الاستيلاء على أرضهم تحت ستار الغيرة الدينية ، بل إن المسيحيين الصادقين من أهل الجنوب قاوموا غارات أهل الشمال[٣٠] . ولما اقترب الصليبيون من بيزيير عرضوا عليها أن يجنبوها ويلات الحرب إذا ما سلمت إليهم جميع الملحدين الذين دوّن أسقفها أسماءهم ؛ ولكن زعماء المدينة رفضوا هذا العرض وقالوا إنهم يفضلون أن يُضرب عليهم الحصار حتى يضطروا إلى أكل أطفالهم . فما كان من الصليبيين إلا أن تسلقوا أسوار المدينة ، واستولوا عليها ، وقتلوا من أهلها عشرين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال بلا تمييز بينهم ، وحتى الذين احتموا منهم

بالكنيسة لم ينجوا من القتل[٣١] . ومن القصص التى شاعت وقتئذ قصة لا نجد لها سنداً إلا فيما كتبه قيصريوس هيستر باخ Caesarius Heisterbach بعد عشرين عاما من ذلك الوقت ، وهى تقول إن أرنود Arnaud مندوب البابا سُئل هل يؤمَّن الكاثوليك على حياتهم فلا يقتلون ، فأجاب : « اقتلوهم جميعاً فالله يعلم من هم أنصاره »[٣٢] ، ولعله كان يخشى أن يجهر جميع المغلوبين وقتئذ باعتناق الدين القويم ، ثم يعودو بعد إلى ضلالهم . ولما حرقت بيزيير عن آخرها تقدم الصليبيون بقيادة ريمند ليهاجموا حصن كاركسون حيث وقف روجر كونت بيزيير وابن أخى ريمند وقفته الأخيرة يدافع عن الحصن ، لكن الحصن سقط فى أيدى المهاجمين ومات روجر بزحار البطن .

وكان أكثر القواد شجاعة فى هذا الحصار هو سيمون ده مونت فورت Simon de Montfort . وقد وُلد سيمون هذا فى فرنسا حوالى عام ١١٧٠ وكان أكبر أبناء سيد مونت فورت القريبة من باريس . وأصبح سيمون بعدئذ إيرل ليسستر Earl of Leicester ، وهو لقب ورثه عن أمه الإنجليزية . وقد استطاع سيمون أن يجمع بين التقى العظيم والحروب العوان ، كما استطاع ذلك كثيرون من رجال وقته المتغطرسين . فكان يستمع إلى الصلوات فى كل يوم ، واشتهر بطهره وعفافه ونال شهرة عظيمة فى حروب فلسطين . وأخذ فى هذه الحرب الألبجنسية يهاجم بجيشه الصغير المؤلف من ٤٥٠٠ رجل بلدة فى إثر بلدة يستحثه مندوب البابا ، ويسحق كل ما يعترضه من مقاومة ، ويعرض على الأهلين أن يختاروا بين يمين الولاء للكنيسة الرومانية أو القتل لأنهم مارقون ؛ واختار آلاف منهم أن يقسموا يمين الولاء ، وفضّل مئات أن يقتلوا[٣٣] . وواصل سيمون حملاته أربعة أعوام خرب فيها أملاك كونت ريمند كلها تقريباً ما عدا طولوز ، حتى استسلمت له طولوز نفسها فى عام ١٢١٥ ، واجتمع مجلس من مندوبى البابا فى منپلييه وقرر خلع كونت ريمند ، وورث سيمون لقبه والجزء الأكبر من أملاكه .

ولم يكن إنوسنت الثالث راضياً كل الرضا عن هذه الأعمال ، فقد هاله أن يجد أن الصليبيين إستولوا على أملاك رجال لم يخرجوا قط على الدين ، وأن هؤلاء الرجال نُهبوا وقُتلوا كما يُقتل القراصنة المتوحشون ويُنهبون(٣٤). وأشفق البابا على ريمند فوظف له معاشاً سنويا ، ووضع جزءاً من أملاكه تحت وصاية الكنيسة تحتفظ بها لابنه ولما بلغ ريمند السابع سن الرشد فتح طولوز واستردها من سيمون ؛ ومات سيمون نفسه وهو يحاصر المدينة مرة ثانية (١٢١٨) . ووقفت الحرب الصليبية وقتئذ لما مات إنوسنت ، وخرج من بقى حيا من الألبجنسيين المستمسكين بعقيدتهم يمارسون شعائر دينهم ويدعون له تحت حكم كونت طولوز الجديد اللّين الرحيم .

وعرض لويس الثامن ملك فرنسا فى عام ١٢٢٣ أن يخلع ريمند ، وأن يقضى على كل الخوارج فى أملاكه . إذا سمح له هونوريوس الثالث بأن يضم هذا الإقليم إلى أملاكه الخاصة . ولسنا نعرف بم أجاب البابا ، وكل ما نعرفه أن حرباً صليبية بدأت . وأن لويس أوشك أن ينتصر فيها حين وافته المنية فى منپلييه (١٢٢٦) . وانتهز ريمند هذه الفرصة ليعقد الصلح مع بلانش صاحبة قشتالة النائبة فيها عن لويس التاسع ، فعرض أملاك ابنته چين Jeanne على الفونس أخى لويس . وعودة أملاك ريمند بعد وفاته إلى چين وزوجها . وكانت بلانش يؤرقها ويقضّ مضجعها الأشراف الثائرون عليها ، فقبلت هذا العرض ، ووافق عليه البابا جريجورى التاسع بعد أن تعهد ريمند بالقضاء على حركة الإلحاد بقضها وقضيضها . وعقدت معاهدة الصلح فى باريس عام ١٢٢٩ ووضعت الحروب الألبجنسية أوزارها بعد ثلاثين عاماً من التقتيل والتخريب ، وخرج الدين القويم ظافراً من هذه الحروب ، وانتهى بانتصاره عهد التسامح ؛ وحرم مجلس نربونه (١٢٢٩) أن يمتلك أحد من غير رجال الدين أى جزء من الكتاب المقدس(٣٥). وأخذ الإقطاع ينتشر ، وأخذت حرية المدن وحكوماتها البلدية فى

الاضمحلال ؛ وانقض عصر شعراء الفروسية الغزلين فى جنوبى فرنسا . وماتت فى عام ١٢٧١ چين هى وألفونس اللذان ورثا أملاك ريمند دون أن يكون لهما أبناء ، وآلت ولاية طولوز الواسعة إلى لويس التاسع والتاج الفرنسى ، وأصبحت لفرنسا الوسطى وقتئذ منافذ تجارية حرة على البحر المتوسط ، وخطت فرنسا خطوة واسعة نحو وحدتها ؛ وكانت هذه الوحدة هى ومحكمة التفتيش أعظم ما أسفرت عنه الحروب الصليبية الألبچنسية .

الفصل الثانى

منشأ محكمة التفتيش أو التحقيق

لقد سنّ كتّاب العهد القديم قانوناً بسيطا لمعاملة المارقين من الدين ، يقضى بأن يفحص عنهم فحصاً دقيقاً ، فإذا شهد ثلاثة شهود عدول بأنهم : « ذهبوا وراء آلهة أخرى » أخرج المارقون من المدينة و « رجموا بالحجارة حتى يموتوا » . (تثنية التشريع ١٣ : ١٠)(*) :

إذا قام فى وسطك نبى أو حالم وأعطاك آية أو أعجوبة ، ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها قائلا لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ، فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم ، لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكى يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم . . . وذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم يقتل لأنه يتكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم . . . فتنزعون الشر من بينكم . وإذا أغواك سراً أخوك ابن أمك ، أو ابنك أو ابنتك ، أو امرأة حضنك ، أو صاحبك الذى مثل نفسك قائلا نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك . . . فلا ترض منه ولا تسمع له ، ولا تشفق عينك عليه ، ولا تستره بل قتلا تقتله . (تثنية التشريع ١٣ : ١ - ٩) . . . لا تدع ساحرة تعيش (الخروج ٢٢ : ١٨) .

وقد ورد فى إنجيل يوحنا (١٥ : ٦) أن عيسى عليه السلام ارتضى هذا القول : « إن كان أحد لا يثبت فىَّ يطرح خارجاً كالغصن فيجف ، ويجمعونه ويطرحونه فى النار فيحترق » . وحافظت الجماعات اليهودية فى العصور الوسطى من الوجهة

(*) فى الأصل الإنجليزى (١٧ : ٢٥) ولكن ١٣ : ١٠ هو الصحيح . (المترجم)

النظرية على شريعة الكتاب المقدس الخاصة بالمروق من الدين ، ولكنها قلما عملت بها . واستمسك بها ابن ميمون بلا تحفظ(٣٦) .

وكانت قوانين اليونان ترى المروق من الدين — أى الامتناع عن عبادة الآلهة اليونانية — جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام ، وهذا هو القانون الذى حكم به على سقراط بالموت ؛ وفى رومة القديمة ، حيث كان الآلهة حلفاء الدولة وأصدقاءها الأوفياء ، كان الخروج عليهم أو التجديف فى حقهم من جرائم الخيانة العظمى التى يعاقب عليها بالإعدام . فإذا لم يوجد من يتقدم باتهام المذنب ، استدعى القاضى الرومانى نفسه هذا المتهم وقام بتحقيق القضية (inquisitio)، ومن هذا الإجراء أخذت محكمة التفتيش أو التحقيق فى العصور الوسطى شكلها واسمها . وطبق أباطرة الروم القوانين الرومانية فى العالم البيزنطى فحكموا بالإعدام على المانويين وغيرهم من المارقين . ثم كثر التسامح فى البلاد الغربية خلال العصور المظلمة وهى التى قلما كان أبناؤها يتحدون الكنيسة ، وقال ليو التاسع أن الحرمان من الدين يجب أن يكون هو العقاب الوحيد الذى يوقع على المارقين(٣٧) . ولما انتشر الإلحاد فى القرن الثانى عشر قال بعض رجال الكنيسة إن حرمان الملحدين يجب أن يعقبه نفى الدولة إياهم أو سجنهم(٣٨) . ولما عادت بولونيا فى القرن الثانى عشر إلى اتباع القوانين الرومانية جاءت فى قانونها نصوص وأساليب ، ودوافع . لإنشاء محكمة تحقيق ، ونقل قانون الإلحاد الكنسى كلمة كلمة من القانون الخامس المعنون De hereticis (الضلال) فى كتاب جستنيان(٣٩). وكان آخر ما فعلته الكنيسة أن أخذت فى القرن الثالث عشر قانون ألد أعدائها . فردريك الثانى ، وهو أن يكون الإعدام عقوبة الضلال .

ولقد كان من المبادئ العامة لدى المسيحيين — ولدى كثيرين من الضالين أنفسهم — أن الكنيسة قد أقامها ابن الله ، وتبعا لهذا المبدإ كان كل هجوم على المذهب الكاثوليكى جريمة موجهة إلى الله نفسه ؛ وكانت النظرة التى ينظر بها

إلى الضال العاصى هى أنه أداة للشيطان أرسل للقضاء على عمل المسيح ، وكل رجل من رجال الحكم بغض النظر عن الضلال إنما يخدم الشيطان بعمله هذا . وإذ كانت الكنيسة تشعر بأنها جزء لا يتجزأ من حكومة أوربا الأخلاقية والسياسية ، فقد كانت تنظر إلى الضلال كما تنظر الدولة إلى الخيانة : أى أنه عمل يراد به تقويض أسس النظام الاجتماعى . وفى ذلك يقول إنوسنت الثالث : « إن القانون المدنى يعاقب الخونة بمصادرة أملاكهم وإعدامهم . . . وهذا يؤكد حقنا فى أن يحرم من الدين من يخونون دين المسيح ، وأن تصادر أملاكهم ؛ ذلك بأن الإساءة إلى الذات العلية المقدسة جريمة أشنع من الإساءة إلى جلالة الملك »(٤٠) . وكان الضال يبدو فى أعين الحكام الدينيين أمثال إنوسنت شراً من المسلم أو اليهودى ؛ ذلك أن هذين يعيشان إما فى خارج العالم المسيحى أو يخضعان لقانون نظامى — صارم — إذا كانا فى داخله ؛ يضاف إلى هذا أن العدو الأجنبى جندى فى حرب صريحة ، أما الضال فهو خائن فى داخل البلاد يقوّض أسس المسيحية وهى مشتبكة فى حرب طاحنة مع الإسلام ، يضاف إلى هذا فى رأى رجال الدين ، أنه إذا أجيز لكل إنسان أن يفسر الكتاب المقدس حسب ما يراه عقله (مهما يكن قاصراً) ، وينشئ لنفسه الصورة التى يرتضيها من صور المسيحية ، فإن الدين الذى حفظ لأوربا قانونها الأخلاقى الضعيف لن يلبث أن ينهار ويتفرق إلى مائة عقيدة ، ويفقد ما له من أثر بوصفه قوة اجتماعية تربط الآدميين المتوحشين بفطرتهم وتخلق منهم مجتمعاً وحضارة .

وكان الشعب نفسه ، إلا فى جنوبى فرنسا وإيطاليا ، أشد الناس حماسة لاضطهاد المخالفين ، وقد يكون هذا لأن الشعب نفسه يعتنق آراء رجال الدين السالفة الذكر دون أن تكون لها فى ذهنه صورة واضحة لها ، أو لأن النفوس الساذجة تخشى بفطرتها كل مخالف وغريب ، أو لأن الناس يسرهم أن يطلقوا فى غمار الجماهير المجتمعة المجهولة العنان لغرائزهم المكبوتة بسبب ما عليهم من

التبعات بوصفهم أفراداً . وأيا كان السبب فإن « الغوغاء أنفسهم قد عاقبوا الضالين قبل أن تشرع الكنيسة فى اضطهادهم بزمن طويل »(٤١) ، بل لقد كان الأهلون المتدينون يشكون لين الكنيسة المفرط مع الضالين(٤٢) ، وكانوا فى بعض الأحيان « يختطفون المنشقين من أيدى القساوسة الذين يحمونهم »(٤٣) ؛ وشاهد ذلك ما كتبه قس من فرنسا الشمالية إلى إنوسنت الثالث يقول : « لقد بلغ من تقوى الناس فى هذه البلاد أنك لا تراهم دائما على استعداد لأن يبعثوا إلى موضع الحرق بمن ثبتت ضلالتهم فحسب ، بل إنهم ليبعثون إليه فوق ذلك بكل من يظنونه ضالا »(٤٤) ؛ وحدث فى عام ١١١٤ أن زج أسقف سواسون ببعض الضالين فى سجن ، ولكن العامة انتهزوا فرصة غيابه و« خافوا أن يصطنع رجال الدين اللين معهم » فهجموا على السجن وجردوا الضالين منه وحرقوهم أحياء(٤٥) . وأصر العامة فى ليبج عام ١١٤٤ على أن يحرق بعض الضالين الذين كان الأسقف أدلبرو Adlbero لا يزال يأمل فى هدايتهم(٤٦) . ولما قال بير ده بروى Birre de Bruys « إن القساوسة يكذبون حين يدعون أنهم يصنعون جسم المسيح » (وهم يصنعون القربان المقدس) وأحرق كومة من الصلبان فى يوم الجمعة الحزينة ، قتله العامة فى مكانه وأحرقوه لساعته(٤٨) .

واشتركت الدولة على كره منها فى اضطهاد الضالين لأنها كانت تخشى ألا تستطيع الحكم بغير مساعدة الكنيسة التى تغرس فى قلوب الناس عقيدة دينية موحدة . يضاف إلى هذا خوفها أن يكون الضلال الدينى ستاراً يخفى وراءه التطرف السياسى ، ولم تكن فى ظنها هذا مخطئة على الدوام(٤٩). وقد يكون للاعتبارات المادية أثر فى هذا الشأن لأن الضلال الدينى أو السياسى كان يعرض للخطر أملاك الكنيسة والدولة ؛ ولهذا كان الرأى العام بين الطبقات العليا — مع استثناء لانجويدك مرة أخرى — يطلب إلى الدولة أن تقضى على الضلال مهما كلفها ذلك القضاء(٥٠). ولهذا أمر هنرى السادس إمبراطور ألمانيا (١١٩٤)

أن ينزل بالضالين أشد أنواع العقاب ، وأن تصادر جميع أملاكهم ، وأصدر أتو الرابع (١٢١٠) ، ولويس الثامن ملك فرنسا (١٢٢٦) ، وأصدرت مدينتا فلورنس (١٢٢٧) وميلان (١٢٢٨) ، مراسيم شبيهة بمرسوم هنرى . وكان أشد قوانين الاضطهاد هو القانون الذى سنّه فردريك الثانى فيما بين عامى ١٢٢٠ و ١٢٣٩ وقضى بأن يسلم الضالون الذين تحكم عليهم الكنيسة إلى « اليد الزمنية ــ أى إلى ولاة الأمور المحليين ــ وأن يحرقوا أحياء ، فإذا ما رجعوا عن ضلالهم نجوا من الموت وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ، ثم صودرت جميع أملاكهم ، وحرم ورثتهم من ميراثهم ، وظل أبناؤهم محرومين من حق الاختيار إلى أى منصب ذى دخل أو كرامة ، إلا إذا كفّروا عن ذنب آبائهم بالتبليغ عن غيرهم من الضالين . وقضى القانون بأن تحرق بيوت الضالين ولا يعاد بناؤها قط(٥١) . وأضاف لويس التاسع الرقيق الظريف أحكاماً شبيهة بهذه الأحكام إلى قوانين فرنسا . والحق أن الملوك هم الذين كانوا ينازعون الشعب فضل البداية فى اضطهاد الضالين . وحسبنا أن نذكر غير ما سبق أن ربرت ملك فرنسا أمر بإحراق ثلاثة عشر ضالا فى أورليان عام ١٠٢٢ ؛ وكان هذا أول حادث معروف من حوادث إعدام الضالين بعد إعدام برسليان Priscillian بأيدى السلطات الزمنية فى عام ٣٨٥ . وبعد ذلك شنق هنرى الثالث إمبراطور ألمانيا عدداً من المانويين أو الكاثاريين جسلار غير عابئ باحتجاج وازو Wazo أسقف ليبج وقوله إن فى الحرمان من الدين عقاباً كافياً للضالين(٥٢). وفى عام ١١٨٣ « بعث » الكونت فليب صاحب فلاندرز هو ورئيس أساقفة ريمس « عدداً كبيراً من النبلاء ، ورجال الدين ، والفرسان ، والفلاحين ، والفتيات ، والنساء المتزوجات ، والأرامل إلى حيث أحرقوا وهم أحياء بعد أن صادرا أملاكهم واقتسماها بينهما » .

وكان البحث عن الضالين قبل القرن الثالث عشر يترك فى الأحوال العادية

للأساقفة . وإنا ليصعب علينا أن نسمى هؤلاء الأساقفة باحثين ، لأنهم كانوا ينتظرون الشائعات العامة أو الضجيـــج الذى يدلهم على الضالين ، فيستدعونهم ولكنهم يصعب عليهم أن يحملوهم بطريق التحقيق على الاعتراف بذنوبهم . ولم يكونوا يرتضون أن يلجأوا إلى التعذيب ، فكانوا لذلك يعمدون إلى طريق التحكيم الإلهى ، وهم مخلصون فى ظاهر الأمر فى اعتقادهم أن الله سيرسل المعجزات لحماية البريئين . وأيد القديس برنار هذه الوسيلة ووصفها مجلس من الأساقفة عقد فى ريمس (١٢٥٧) بأنها إجراء عادى فى محاكمة الضالين ، ولكن إنوسنت الثالث حرمها . وساء البابا لوسيوس الثالث إهمال الأساقفة فى محاربة الضلال ، فأمرهم بأن يزوروا أسقفياتهم مرة فى كل عام على الأقل ، وأن يقبضوا على كل من تحوم حولهم الشبهات ، وأن يسلكوا كل من لا يقسم يمين الولاء التام للكنيسة فى زمرة الضالين (وقد رفض الكاثارى أن يقسموا هذا القسم) ، ثم عليهم بعد ذلك أن يسلموا هؤلاء العصاة إلى ولاة الأمور المحليين . وخوّل مندوبو البابا حق خلع الأساقفة الذين يتوانون فى القضاء على الضلال(٥٤) . وطلب إنوسنت الثالث فى عام ١٢١٥ إلى جميع ولاة الأمور المدنيين أن يقسموا علناً بأن « يبيدوا من الأراضى الخاضعة لطاعتهم جميع الضالين الذين عينتهم الكنيسة ليلقوا ما يستحقون من العقاب » فإذا لم يفعلوا هذا كانوا هم أنفسهم ضالين . وكل أمير يهمل فى أداء هذا الواجب يخلع ويعفى البابا رعاياه من طاعته(٥٥) ، ولم يكن « العقاب الذى يستحقونه » حتى ذلك الوقت يزيد على النفى ومصادرة الأملاك(٥٦) .

ولما ارتقى جريجورى التاسع عرش البابوية (١٢٢٧) وجد أن الضلال آخذ فى الازدياد رغم المحاكمات الشعبية ، والحكومية ، والأسقفية . فقد كانت جميع بلاد البلقان ، وكان الجزء الأكبر من إيطاليا ، وغير قليل من فرنسا ، كانت هذه البلاد مرتعاً للزيغ والضلال ، حتى لقد أضحت الكنيسة ، ولما يمض على

سلطان إنوسنت الرائع إلا زمن وجيز ، يتهددها خطر الانقسام والتفكك . وكانت المسألة ، كما يراها الحبر الطاعن فى السن ، أن الكنيسة وهى تقاتل فردريك والضلال فى وقت واحد ، إنما تقاتل فى سبيل المحافظة على حياتها ، وأنها يحق لها من أجل ذلك أن تلجأ إلى المبادئ الأخلاقية والأساليب التى تحتمها حالة الحرب . وروّع جريجورى أن عرف أن الأسقف فلپو پاترنون Filippo Paterrenon الذى تمتد أسقفيته من بيزا إلى أرزو قد اعتنق مذهب الكاثارى ، فعيّن لجنة للتحقيق يرأسها راهب من الدمنيك تعقد جلساتها فى فلورنس وتقدم الضالين إلى المحاكمة (١٢٢٧) . وكانت هذه اللجنة فى واقع الأمر بداية محكمة التحقيق البابوية ، وإن كان المحققون فيها خاضعين من الوجهة الرسمية لسلطان الأسقف المحلى . فلما كان عام ١٢٣١ أدخل جريجورى فى قانون الكنيسة الشرائع التى سنها فردريك فى عام ١٢٢٤ ؛ وبذلك اتفقت الكنيسة والدولة من ذلك الوقت على أن الضالين الذين لا يتوبون عن ضلالهم خونة يجب أن يعاقبوا بالإعدام ؛ وبهذا أنشئت محكمة التحقيق (التفتيش) رسميا تحت سلطان البابوات .

الفصل الثالث

المحققون (المفتشون)

أرسل جريجورى وخلفاؤه بعد عام ١٢٢٧ عدداً منزايداً من المحققين أو المفتشين الخصوصيين لمطاردة الضلال ، وكان يفضل أن يختار لهذا العمل أعضاء طوائف الرهبان المتسولين الجدد لأن حياتهم البسيطة وإخلاصهم يختلفان عن ترف رجال الدين من ناحية ، ولأنه من ناحية أخرى لايستطيع الاعتماد على الأساقفة على أنه لم يبح لأى محقق أن يقضى بحكم شديد على أى ضال من غير موافقة الأسقف ، ولهذا اختير كثير من الرهبان الدمنيك لهذا الغرض ، حتى لقد سموا من قبيل السخرية Domini Canes أى « كلاب الله » (الصيادين)[٥٧] . وكان كثيرون منهم رجالا متزمتين فى أخلاقهم ولكن قلّ منهم من كان يتصف بالرحمة ، ولم يكونوا يعتقدون فى أنفسهم أنهم قضاة يزنون الأدلة بعدل ونزاهة ، بل كانوا يظنون أنهم محاربون يطاردون أعداء المسيح . وكان منهم رجال ذوو عناية وضمائر حية أمثال برنار جوى Bernard Gui ، ومنهم من كانوا مرضى ساديين مثل ربرت الدمنيكى Robert the Dominican وهو رجل ضال تائب أرسل فى يوم واحد من أيام ١٢٣٩ مائة وثمانين شخصاً ليحوقوا أحياء ، من بينهم أسقف منح الضالين حسب رأيه حرية أكثر مما يستحقون . وقد أعفى ربرت هذا من منصبه وحكم عليه بالسجن مدى الحياة[٥٨] .

وكان اختصاص محكمة التحقيق مقصوراً على المسيحيين دون سواهم ، أما اليهود والمسلمون فلم يكونوا يدعون أمامها للتحقيق معهم إلا إن كانوا مسيحيين مرتدين[٥٩] . ولقد بذل الدمنيك جهوداً خاصة لتحويل اليهود إلى المسيحيه ،

ولكنهم لم يكونوا يلجئون فى هذا العمل لغير الوسائل السلمية ؛ وبلغ من حرصهم على هذا أنه لما اتهم بعض اليهود فى عام ١٢٥٦ بقتل بعض أطفال المسيحيين فى بعض طقوسهم ، عرض الرهبان الدمنيك والفرنسسكان حياتهم للخطر لإنقاذهم من الغوغاء[٦٠] . وخير ما يوضح لنا الغرض من إنشاء محكمة التحقيق ودائرة اختصاصها مرسوم بابوى أصدره نقولاس الثالث (١٢٨٠) :

نعلن بهذا حرمان جميع الضالين ونصب عليهم اللعنة — الكاثارى ، والپتارين ، ورجال ليون الفقراء . . . وكل من عداهم أيا كان الاسم الذى يسمون به . فإذا أدانتهم الكنيسة وجب إسلامهم إلى القاضى الزمنى لمعاقبتهم . . . وإذا ما ندم واحد منهم بعد اعتقاله وأراد أن يكفر عن ذنبه ، وجب سجنه مدى الحياة . . . وكل من يأوى الضالين ، أو يحميهم ، أو يساعدهم ، يحرم من الدين ؛ وإذا بقى إنسان محروماً عاماً كاملا ويوماً حرم من حماية القانون . . . وإذا لم يستطع المتهمون بالضلال أن يثبتوا براءتهم ، طردوا من حظيرة الدين ، فإذا بقوا محرومين عاما كاملا حكم عليهم بما يحكم على الضالين . وليس لهؤلاء حق استئناف الحكم . . . وكل من يمنحهم دفنة مسيحية يحكم عليه بالحرمان ويظل كذلك حتى يعمل ما يستوجب الرضا عنه . . . فلا يُغفر له ذنبه حتى يخرج بيده جثث المحرومين ويطرحها فى العراء . . . ونحن نحرم على غير رجال الدين جميعهم أن يناقشوا فى مسائل الدين الكاثوليكى ، ومن يفعل هذا يحرم من الدين ؛ وعلى كل من يعرف أحداً من الضالين ، أو ممن يعقدون اجتماعات سرية ، أو ممن لا يؤمنون بعقائد الدين القويم أيا كانت ، أن يبلغ ذلك إلى من يفضى إليه باعترافه ، أو إلى شخص آخر يبلغه إلى الأسقف أو المحقق ، فإذا لم يفعل هذا حرم من الدين . والضالون ، وكل من يأوونهم ، أو يؤيدونهم ، أو يساعدونهم ، وكذلك أبناؤهم حتى الجيل الثانى — هؤلاء لا يسمح لهم بتولى المناصب الكنسية . . . وها نحن أولاء نحرمهم جميعاً وأمثالهم من دخلهم إلى أبد الدهر[٦١] .

ويجوز أن تبدأ إجراءات محاكم التحقيق بالقبض العاجل على جميع الضالين ، وعلى جميع المشتبه فى ضلالهم أحياناً ؛ وقد تبدأ بأن يستدعى المحققون الزائرون جميع السكان البالغين فى مكان ما للبحث المبدئى . والذين يقرون بضلالهم فى خلال « المهلة القانونية » الأولى ، ومدتها ثلاثون يوما ، ثم يتوبون ، يطلق سراحهم بعد حبسهم زمناً وجيزاً ، أو بعد أن يقوموا بعمل من أعمـــال التقى ، أو يتصدقون بالمال[٦٢] . أما الضالون الذين لا يعترفون فى أثناء هذه المهلة ، ثم يكشف عن أمرهم فى هذا التحقيق المبدئى ، أو تدل عليهم عيون محكمة التحقيق[٦٣] ، أو يكشف عنهم بأية طريقة أخرى ، أما هؤلاء جميعاً فيدعون إلى المثول أمام محكمة التحقيق . وكانت هذه المحكمة تؤلف فى الأحوال العادية من اثنى عشر رجلا يختارهم الحاكم الزمنى فى الإقليم من ثبت يحتوى أسماء المرشحين ، يعرضه عليه الأسقف وهيئة المحققين ، ويضم إليه اثنان من المسجلين وعدد من الحجاب . فإذا ما انتهز المتهمون هذه الفرصة الثانية ، وأقروا بذنبهم ، عوقبوا عقاباً يختلف باختلاف ذنبهم ، وإذا أنكروا جرمهم زجوا فى السجن . وكان من المستطاع محاكمة المتهمين وهم غائبون أو بعد مماتهم . وكانت المحاكمة تحتاج إلى شاهدين من شهود الإثبات ، وتقبل من يعترفون بذنبهم من الضالين شهود إثبات على غيرهم ؛ وكان يسمح للزوجات أن يشهدن على أزواجهن وللأبناء على آبائهم ، ولا يسمح لهؤلاء أو أولئك أن يشهدن أو يشهدوا لهم[٦٤] . ويسمح لجميع المتهمين فى مكان ما بناء على طلبهم أن يطلعوا على ثبت شامل يحوى جميع أسماء من يتهمونهم ، ولكن هذا الثبت لا يدل أى متهم على من اتهمه ، فقد كان يخشى أنه إذا واجه أى متهم من اتهمه فقد يعمد أصدقاء المتهم إلى قتل من يتهمه . وفى ذلك يقول لى Lea : « والحق أن عدداً من الشهود قد قتلوا لريبة بسيطة حامت حولهم »[٦٥] . وكان يطلب إلى المتهم عادة أن يذكر أسماء أعدائه ، وكانت المحكمة ترفض أى دليل يقدمه أولئك الأعداء[٦٦] .

وكان المبلغون الكاذبون يعاقبون أشد العقاب[٦٧] ؛ ولم يكن يسمح للمتهمين قبل عام ١٣٠٠ بأن يستعينوا بأية معونة قانونية[٦٨] ، أما بعد عام ١٣٥٤ فقد صدر مرسوم بابوى يحتم على المحققين ألا يعرضوا أدلة الإثبات على الأسقف وحده بل أن يعرضوها عليه وعلى رجال من ذوى السمعة الطيبة فى الإقليم ، وأن يصدروا حكمهم بما يتفق مع آرائهم[٦٩] . وكانت هيئة من الخبراء (perite) تدعى فى بعض الأحيان لتبدى رأيها فى الأدلة . وقصارى القول أن الأوامر الصادرة إلى المحققين كانت تنبههم إلى أن نجاة المذنب من العقاب خير من إدانة البرىء ، وأن من واجبهم أن يحصلوا على دليل واضح أو اعتراف صريح .

وكان القانون الرومانى القديم يجيز الالتجاء إلى التعذيب للحصول على الاعتراف ؛ ولم تكن هذه الطريقة تتبع فى المحاكم الأسقفية ؛ أو فى السنين العشرين الأولى من سنى محـاكم التحقيق . غير أن إنوسنت الرابع (١٢٥٢) أجازها حيث يكون القضاة واثقين من جرم المتهم ، ثم أجازها من جاء بعده من الأحبار[٧٠] . ولكن البابوات كانوا ينصحون بأن يكون التعذيب آخر ما يلجأ إليه مع المتهمين ، وألا يلجأ إليه إلا مرة واحدة ، « وألا يصل إلى ما يؤدى إلى فقد عضو من الأعضاء أو إلى خطر الموت » . وفسر المحققون عبارة « مرة واحدة » بأنها تعنى مرة واحدة فى كل محاكمة ، فكانوا لذلك يقطعون التعذيب فى بعض الأحيان ليواصلوا المحاكمة ، ويرون بعدئذ أن من حقهم أن يعودوا إلى تعذيب المتهم . وكان التعذيب يستخدم فى كثير من الأحيان لإرغام الشهود على أداء الشهادة ، أو لإجبار الضال المعـترف على الإدلاء بأسماء غيره من الضالين[٧١] . وكان من أنواعه الجلد ، والكى بالنار ، والتعذيب بالعذراء ، والسجن الانفرادى فى جب مظلم ضيق . وكانت قدما المتهم توضعان أحياناً على الفحم المتقد ؛ أو كان يشد إلى إطار على شكل مثلث ثم تجذب يداه وساقاه بالحبال الملفوفة حول آلة لاوية . وكان طعام السجين يقلل أحياناً حتى يضعف

بذلك جسمه وإرادته فيؤثر فيه ذلك التعذيب النفسانى ، كالوعد بالرأفة أو التهديد بالقتل(٧٢) . وقلما كانت محكمة التحقيق ترى قيمة للاعتراف الذى يأتى من طريق التعذيب ، ولكن هذه المشكلة كان يتغلب عليها بإرغام المتهم على أن يؤكد ، بعد ثلاث ساعات من اعترافه ، ما قرره أثناء التعذيب ؛ فإذا أبى أمكن تعذيبه من جديد . وحدث فى عام ١٢٨٦ أن بعث موظفو كركسون Carcassonne برسالة إلى فليب الرابع ملك فرنسا وإلى البابا نقولاس الرابع يشكون فيها من صعوبة التعذيب الذى يلجأ إليه المحقق جان جالان Jean Galand . فقد كان بعض مسجونى جان هذا يتركون زمناً طويلا فى السجن الانفرادى الحالك الظلام ، وكانت قيود بعضهم تبلغ من الضيق حداً يضطرون معه إلى الجلوس فى براز هم ، أولا يستطيعون إلا النوم على ظهورهم فوق الأرض الباردة(٧٣) . وقد شد بعضهم إلى العذراء شداً عنيفاً فقدوا معه استخدام أيديهم وأرجلهم ، ومنهم من مات فى أثناء التعذيب(٧٤) . وشنع فيلب على هذه الوحشية وحاول البابا كلمنت الخامس (١٣١٢) أن يحدّ من التجاء المحققين إلى التعذيب ، ولكن سرعان ما أهملت أوامره(٧٥) .

وكان المسجونون الذين يأبون أن يفيدوا من الفرصتين اللتين تتاح لهم للاعتراف ثم يدانون بعدئذ ، والذين يرتدون إلى ضلالهم بعد توبتهم ، كان هؤلاء وأولئك يحكم عليهم بالسجن مدى الحياة أو بالإعدام . وكان السجن مدى الحياة يخفف بمنح السجين شيئاً من الحرية فى التنقل ، والزيارة ، والألعاب ، أو يشدّد بحرمانه من الطعام أو بتقييده بالأغلال(٧٦) . وكان الذين يدانون بعد أن يقاوموا يحكم عليهم بالإضافة إلى الأحكام الأخرى بمصادرة أملاكهم . وكان بعض هذه الأملاك المصادرة يعطى عادة لحاكم الإقليم الزمنى ، ويعطى بعضها للكنيسة ؛ وكان ثلث هذه الأملاك يعطى فى إيطاليا للذى يبلغ عن الضال ؛ أما فى فرنسا فكانت الأملاك المصادرة تذهب كلها للتاج . وكانت هذه الاعتبارات كلها

تغرى الدولة والأفراد بالاشتراك فى تعقب الضالين ، وفى محاكمة الموتى ؛ وكان من المستطاع فى أى وقت من الأوقات الاستيلاء على أملاك البريئين من الناس بحجة أن من أورثوهم إياها قد ماتوا وهم ضالون . وكان هذا من الشرور الكثيرة التى حاول البابوات أن يقضوا عليها ، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح(٧٧) . وكان مما يفتخر به أسقف رودس أنه جمع مائة ألف « صول(*) » فى حملة واحدة على الضالين فى أسقفيته(٧٨) .

وكان المحققون يعلنون فى حفل رهيب يقام من آن إلى آن إدانة المذنبين وما يحكم به عليهم من عقاب . فأما التائبون فكانوا يوضعون على منصة فى وسط الكنيسة ، ثم يُقرأ اعترافهم ، ويطلب إليهم أن يؤكدوا هذا الاعتراف ، وأن ينطقوا بصيغة خاصة يعلنون فيها إقلاعهم عن الضلال ؛ ثم يقوم المحقق الذى يرأس الاحتفال فيعفى التائب من الحرمان ، ويعلن سائر الأحكام المختلفة . فأما الذين « سيطلقون » أى يتركون إلى السلطات الزمنية فكان يسمح لهم بيوم آخر يرجعون فيه عن ضلالهم ؛ وأما الذين يعترفون ويتوبون ، ولو كانوا عند عمود الحرق ، فكان يحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ؛ وأما الذين يبقون على عنادهم فكانوا يحرقون وهم أحياء فى الميدان العام . وكان هذا الإجراء كله ، من حكم وتنفيذ ، يطلق عليه فى أسبانيا اسم « عمل الإيمان auto da fé » لأنه كان يقصد به أن يقوى عقائد الشعب الصحيحة ، ويؤيد الإيمان بالكنيسة . ولم تنطق الكنيسة قط بحكم الإعدام ، فقد كان شعارها القديم هو : إن الكنيسة تحجم عن إراقة الدماء « ecclesia abhorret a sanguine » ، ولهذا كان القسيسون يؤمرون بألا يسفكوا دماء ؛ ومن أجل ذلك فإن الكنيسة حين تبعث إلى السلطات الزمنية باللذين تدينهم لم تكن تطلب إلى ولاة رجال الدولة

(*) عملة فرنسية قديمة كانت قيمتها ٥ من الجنيه الفرنسى استبدل بها « الصلدى » . (المترجم)

أكثر من أن يوقعوا عليهم « العقاب الذى يستحقونه » وتنبههم إلى أن يتجنبوا « كل ما من شأنه سفك الدماء أو التعريض لخطر الموت » . ثم اتفقت الكنيسة والدولة بعد جريجورى التاسع على ألا يؤخذ هذا التحذير بمعناه الحرفى ، بل أن يقتل المذنبون دون أن تسفك دماؤهم أى أن يحرقوا عند عمود الإحراق (٧٩) .

وكان عدد من حكمت عليهم محكمة التحقيق الرسمية بالموت أقل مما كان يعتقده المؤرخون فى وقت من الأوقات (٨٠) . ومن الشواهد الدالة على ذلك أن برنار ده كو Bernard de Caux وهو من المحققين المتحمسين ، قد خلف سجلا طويلا بالقضايا التى نظر فيها ؛ وليس فى هذا السجل قضية واحدة حكم فيها بإرسال المذنب إلى السلطات المدنية (٨١) . وحكم محقق يدعى برنار جوى Bernard Gui فى مدى سبعة عشر عاما على تسعمائة وثلاثين ضالا ، فلم يتجاوز من حكم عليهم بالموت من بين هذا العدد خمسة وأربعين (٨٢) . وكانت الأحكام الصادرة فى حفل عام بطولوز (طلوشة) عام ١٣١٠ هى أن أمر عشرون شخصاً بأن يخرجو للحج ، وحكم على ستة وخمسين بالسجن مدى الحياة ، وعلى ثمانية عشر بالإعدام . وفى عمل الإيمان الذى حدث فى عام ١٣١٢ أرسل واحد وخمسون إلى الحج ، وحكم على ثمانية وستين بالسجن مدداً مختلفة ، وأرسل خمسة إلى السلطات الزمنية (٨٣) . وقصارى القول أن شر مآسى محاكم التحقيق قد أخفتها السجون ولم تر الضوء عند أعمدة الإحراق .

الفصل الرابع

النتـــائج

لقد حققت محاكم التحقيق فى العصور الوسطى أغراضها العاجلة ، فقد قضت على الكثارية فى فرنسا ، ولم تبق من الولدنسيين إلا عددا قليلا من المتخمسين المتفرقين فى أماكن مختلفة ، وأعادت جنوبى إيطاليا إلى الدين القويم ، وأجلت تمزق المسيحية الغربية مدى ثلاثة قرون . وبها انتقلت زعامة أوربا الثقافية من فرنسا إلى إيطاليا ، ولكن الملكية الفرنسية المطلقة ، بعد أن قويت باستيلائها على لانجوبدك ، بلغت من السلطان مبلغاً استطاعت به أن تخضع البابوية لأمرها فى أيام بنيفاس الثامن ، وأن تزجها فى السجن فى عهد كلمنت الخامس .

ولم يكن لمحاكم التحقيق فى أسپانيا قبل عام ١٣٠٠ إلا شأن صغير ، وترجع نشأتها فيها إلى عام ١٢٣٢ حين استطاع ريمند البنيا فورتى Raymond of Panafort الراهب الدمنيكى عند جيمس الأول ملك أرغونة ، أن يقنع هذا الملك بإدخال محاكم التحقيق فى بلده . ولعل هذا الملك أراد أن يقلل من شطط محاكم التحقيق فسنّ فى عام ١٢٣٣ قانوناً يجعل الدولة هى التى تؤول إليها أملاك الضالين المصادرة ، وإن أصبح هذا العمل نفسه فى القرون التالية حافزاً قويا للملوك الذين وجدوا أن التحقيق والاستيلاء عملان شديدا الاتصال أحدهما بالآخر .

وفى شمالى إيطاليا ظل الضالون كثيرى العدد ، فلم يكن أتباع الدين القويم يعنون كثيراً بالاشتراك فى اصطياد الضالين ، وكان الطغاة المستقلون أمثال إزلينو Ezzelino فى ڤيسنزا Vicenza وپلاڤيشينو Pallavicino فى كرمونا وميلان يحمون الضالين سراً أو جهراً . وفى فلورنس أنشأ الراهب روچيرى Ruggieri

جماعة عسكرية من النبلاء المستمسكين بالدين لتأييد محكمة التحقيق ؛ واشتبك معهم البتاريون فى معارك دموية فى الشوارع ولكنهم هزموا فيها (١٢٤٥) ؛ ثم أخفت الضلالة فى فلورنس رأسها فيما بعد ؛ وحدث فى عام ١٢٥٢ أن اغتال بعض الضالين الراهب پيرو دا ڤرونا Plero da Verona فى ميلان ، فلما قتل سلكته الكنيسة فى عداد القديسين الشهداء وأسمته الشهيد بطرس ؛ وكان لعملها هذا من الأثر فى مقاومة الضلالة فى شمالى إيطاليا أكثر مما كان لجميع فظائع المحققين . وشنت البابوية حروباً صليبية على إزلينو وپلاڤنسينو ، وقضى على أولهما فى عام ١٢٥٩ وعلى الثانى فى عام ١٢٦٨ ، وبهذا كان انتصار الكنيسة فى إيطاليا نصراً حاسماً فى ظاهر الأمر .

ولم تثبت محكمة التحقيق قدمها فى إنجلترا . نعم إن هنرى الثانى حرص على إثبات تمسكه بدينه فى أثناء نزاعه مع بكت بأن جلد واحداً وعشرين من الضالين وكواهم بالنار فى أكسفورد عام ١٢٦٦[٨٤] . ولكننا لا نكاد نسمع عن ضلالة فى إنجلترا قبل أيام ويكلف Wycalf . وفى ألمانيا ترعرعت محكمة التحقيق وأقدمت على أعمال جنونية زمناً قصيراً ، ثم ماتت . فقد حدث فى عام ١٢١٢ أن أحرق هنرى أسقف استرسبرج ثمانين ضالا فى يوم واحد ، وكان معظمهم ولديين ؛ وأعلن زعيمهم القس يوحنا عدم إيمانه بالغفران ، وبالمطهر ، وببقاء رجال الدين بلا زواج ، وقال إن رجال الدين يجب ألا تكون لهم أملاك . وفى عام ١٢٢٧ عيّن جريجورى التاسع كنراد Conrad قس ماربرج Marburg رئيساً لمحاكم التحقيق فى ألمانيا وأمره ألا يكتفى بالقضاء على الضلال ، بل أن يصلح أحوال رجال الدين بعد أن وصمهم البابا بالفساد ، وقال إن فسادهم هو أهم أسباب ضعف الإيمان بين الناس . واضطلع كنراد بكلا الواجبين بمنتهى القسوة ، وخيّر كل من اتهموا بالضلال بين واحدة من اثنتين : إما الاعتراف فالعقاب ، أو الإنكار فالموت حرقاً . ولما أن سار فى إصلاح رجال الدين على

هذا النحو من الجد ، انضم المستمسكون بدينهم والضالون بعضهم إلى بعض فى مقاومته ، وانتهى الأمر بأن قتله أصدقاء ضحاياه (١٢٣٣) ؛ وتولى الأساقفة الألمان أعمال محاكم التحقيق ، وخففوا من غلوائها ، وجعلوا إجراءاتها أقرب إلى العدالة من ذى قبل . وبقيت بعض الشيع الدينية ، بعضها شيع ضالة وبعضها صوفية ، فى بوهيميا وألمانيا ، ومهدت السبيل إلى هوس Huss ولوثر Luther .

وبعد فإنا حين نصدر حكما على محاكم التحقيق يجب أن ننظر إليها على ضوء عصر اعتاد الوحشية ، ولعل عصرنا الحاضر الذى قَتَل فى الحروب وأزهق من الأرواح البريئة دون أية محاكمة ، أكثر من أمثالهم بين أيام قيصر ونابليون ، أقدر من غيره على فهم هذه المحاكم . إن التعصب يلازم الإيمان القوى على الدوام ، والتسامح لا ينشأ إلا حين يفقد الإيمان يقينه ، أما اليقين فسيف بتّار . ولقد أقر أفلاطون التعصب فى « قوانينه » ، وأقره المصلحون فى القرن السادس عشر ، وإن بعض من ينتقدون محكمة التحقيق ليدافعون عن أساليبها إذا جرت عليها الدول الحديثة . ولقد تضمنت قوانين كثير من الحكومات الأساليب التى سارت عليها محاكم التحقيق ، ولعل ما يحدث من تعذيب المشتبه فيهم سراً فى هذه الأيام يسير على نمط محاكم التحقيق أكثر مما يسير على نمط القانون الرومانى . وإذا وازنّا بين اضطهاد المسيحيين للضالين فى أوربا من ١٢٢٧ إلى ١٤٩٢ ، وبين اضطهاد الرومان للمسيحيين فى الثلاثة القرون الأولى بعد المسيح ، حكمنا من فورنا بأن هذا أخف وطأة وأكثر رحمة من ذاك . وإذا ما أسقطنا من حسابنا كل ما يطلب إلى المؤرخ من اعتدال فى حكمه ، وما يسمح به للمسيحى من تمسك بدينه ؛ إذا أسقطنا من حسابنا هذا وذاك ، فلا بد لنا أن نضع محاكم التحقيق فى مستوى حروب هذه الأيام واضطهاداتها ، ونحكم عليها جميعاً بأنها أشنع الوصمات فى سجل البشرية كله ، وبأنها تكشف عن وحشية لا نعرف لها نظيراً عند أى وحش من الوحوش .